

بسم الله الرحمن الرحيم

علوم القرآن الكريم

د. الشيخ حسين النصر اوي

تعريف القرآن لغة واصطلاحًا

القرآن لغةً هو الجمع. يقال: قرأت الشيء قرآنًا، أي جمعت بعضه إلى بعض وقرأت الماء في الحوض، إذا جمعته وما قرأت الناقه جنينًا، أي لم يجمع رحمها ولدًا. وسمي القرآن كذلك لأنه يجمع السور والآيات، ويضم بعضها إلى بعض.

وقيل مصدر الفعل قرأ، يقال: قرأ قراءة وقرآنًا، وعلى هذا يمكن أن يكون تسميته راجعة إلى كثرة قراءته وترداده على الألسن.

وقيل: مشتق من القرائن، لأن الآيات يصدق بعضها بعض، ويشهد بعضها لبعض.

واصطلاحًا: القرآن كلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر والمتعبد بتلاوته المعجز ولو بسورة منه.

أسماء القرآن

إضافه إلى اسمه الأشهر المشار إليه والذي ورد ذكره في القرآن نفسه في أكثر من موضع:

(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)، (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)، (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين).

فقد وردت له عدة أسماء

منها: الكتاب، قال تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)، (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه)، وفي هذه التسمية إشارة إلى الترابط ووحدة الهدف، وكذلك فيه إشارة إلى كونه مدونًا في السطور.

ومنها: الفرقان: (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا). لأنه يفرق بين الحق والباطل.

ومنها: الذكر: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)، (وهذا ذكركم مبارك أنزلناه). ويمكن أن يكون من جهة أنه يُذكر ويتلى.

ومنها: النور: (وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا)، (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين).

وتسميته بالنور بيّنة السبب. إذ النور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره.

معنى علوم القرآن

علوم القرآن: هي تلك المباحث والموضوعات العلمية التي تتعلق بالقرآن، وهي: علم التفسير، إعجاز القرآن، آيات الاحكام، إعراب القرآن، بلاغة القرآن، رسم القرآن، علم القراءات، أسباب النزول، المكي والمدني، المحكم والمتشابه، الناسخ والمنسوخ. وهذه العلوم ناشئة من الاعتبارات المختلفة، فالقرآن بوصفه كلامًا دالًّا على معنى، وهو كلام عميق ودقيق فهو يحتاج إلى تفسير. وبوصفه دليلاً على نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) فهو موضوع لبحث الإعجاز القرآني.

ومن جهة كونه مصدرًا للتشريع ينبثق بحث آيات الأحكام. وبوصفه نصًّا عربيًّا جاريًّا وفق قواعد اللغة العربية ينتج بحث إعراب القرآن والبلاغة العربية. ومن جهة كونه نصًّا مكتوبًا يُطرح علم رسم القرآن. وقد يُؤخذ بما هو مقروء فيكون موضوعًا لعلم القراءات. وقد يؤخذ بوصفه مرتبطًا بوقائع وأحداث معينة نزلت آياته بشأنها، فيكون موضوعًا لعلم أسباب النزول. وقد يؤخذ بوصفه نزل في أماكن مختلفة فيكون موضوعًا للمكي والمدني. وقد يبحث من جهة الاختلاف المتصور بين آياته فيكون بحثًا للمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ.

تاريخ علوم القرآن

ورد في القرآن وكلام النبي ما يمكن أن نعهده أصلًا لتأسيس علوم القرآن. قال تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها). وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه). وعن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: (حدثنا من كان يقرؤنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله صلى الله عليه وآله عشر آيات، فلا يأخذون العشره الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل).

ولكن الناس عموماً كانوا على عهد النبي يسمعون القرآن ويفهمونه بنوقهم العربي الخالص، قد يسألون أحياناً عن بعض الأمور التي تخفى عليهم، لكن بحكم قربهم من النص لأنهم في زمنه، ومن لغة النص لأنهم يتحدثونها، كانت مجالات العلوم القرآنية

التي يحتاجونها محدودة، والمقدار الذي يحتاجونه من تفسير أو توضيح بعض الأشياء كانوا يأخذونه شفاهًا كما يشير إليه الحديث أنف الذكر.

ولكن بعد وفاة النبي وتوسع رقعة الدولة الإسلامية الذي أفضى إلى اختلاط العرب بغيرهم برزت الحاجة إلى جمع وضبط وتدوين علوم القرآن، وأول من انتبه إلى ذلك الإمام علي (عليه السلام)، حيث قام بعد وفاة النبي بجمع القرآن مع تدوين كثيرًا من الأمور التي ترتبط بنزوله وأحكامه، فكانت البذرة الأولى لعلوم القرآن، وكذلك كان (عليه السلام) يعلم هذه الأمور شفاهًا، ويتحدث عنها، ويشير إليه قوله:

(سألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتموني عن أية آية في ليل أنزلت أو في نهار أنزلت، مكّيها ومدنيها، سفرّيها وحضريّها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها إلا أخبرتكم).

ثم إن تلميذه أبا الأسود الدولي ويحيى بن يعمر وضع أسس تلك العلوم، فأبو الأسود كان أول من نَقَطَ المصحف، وابن يعمر كان إمام القراء بالبصرة، وهو أول من دَوّن في القراءة.

ومن أقدم الكتب التي أُلِّفَت في علوم القرآن:

غريب القرآن لأبان بن تغلب (ت 141 هـ).

متشابه القرآن لحمزة بن حبيب (ت 156 هـ).

الرغيب للواقدي (ت 207 هـ).

الناسخ والمنسوخ لعبد الله بن عبد الرحمن الأصم (ت 262 هـ).

البيان في علوم القرآن للشيخ المفيد (ت 413 هـ).

المحكم والمتشابه في القرآن للشريف المرتضى (ت 436 هـ).

التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي (ت 460 هـ).

المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ).

التبيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات الأنباري (577 هـ).

متشابهات القرآن ومختلفه لابن شهر آشوب (588 هـ).

مجمع البيان للطبرسي (548 هـ).

فنون الألفان في عجائب القرآن لابن الجوزي (597 هـ).

سعد السعود لابن طاووس (664 هـ).

البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (794).

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (911).

ومن الكتب المعاصرة:

مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح.

البيان في علوم القرآن لعبد الوهاب غزلان.

مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني.

البيان في تفسير القرآن للخوئي.

علوم القرآن لمحمد باقر الحكيم.

إعجاز القرآن

الإعجاز في اللغة والفوت. يقال: أعجزني الأمر، أي فاتني، ومنه المعجزة.

وإصطلاحًا: المعجزة: ما يأتي به مدعي النبوة من خرق لنواميس الطبيعة شاهدًا على صحة دعواه، ويعجز الآخرون عنه.

عناصر المعجزة

1- إنها خرق لنواميس الطبيعة، أي للقوانين الطبيعية الثابتة كشفاء المرضى وإحياء الموتى، وتعرض للنار دون احتراق بها، وأمثال ذلك.

2- ليست مستحيلة عقلاً، كأن تكون المعجزة أن يجعلهم النبي يرون الله، أو أن ينزل الله إليهم ويتشكّل بشكل المخلوق، فإن هذه الأمور غير ممكنة في ذاتها.

3_ عجز الآخرين عن الإتيان بها، فلو تمكنوا من تقليدها لم تكن معجزة، وبهذا يخرج ما يصنعه المرتاضون والمشعوذون من الإتيان بالأعمال الغريبة، مما يصعب تفسيره بحسب معطيات العلم كأكل الزجاج أو رفع الحاجات الثقيلة كالسيارة باليد أو النظر إلى كاس بحدّة حتى ينكسر، وأمثال ذلك، فإن هذه الأمور وإن خفيت أسرارها بحيث نتخيلها خرقًا للعادات، لكنها لا تدخل في باب المعجزة من حيث إن هناك آخرين يقومون بها، وليست مقتصرة على فرد بعينه، فلو فرض أن شخصًا ممن يقومون بذلك ادّعى النبوة لم ينفعه ذلك من جهة إمكان تقليد ما جاء به ومحاكاته.

4_ إنها بصدد إثبات النبوة، إذ قد تصدر عن النبي خوارق للعادات، لكن ليس في مقام إثبات منصب النبوة، أو قد تصدر عن غيره من الأولياء والصالحين، فهذه لا تسمى معاجز في عرف المتكلمين بل كرامات.

5- غير ناشئة عن تعلّم وتدرّب، وهذا أيضاً مخرج لأعمال المشعوذين والمرتاضين وأشباههم، فهي ناشئة عن تعلم وتدريب.

دليل الحاجة إلى المعجزة

1_ البشر محتاجون إلى التكليف ليتكاملوا ويسعدوا. والتكليف _أي إقامة القانون والنظام الأصلح والأنسب لهم_ هو منوط بمن خلقهم، وهو أعرف بهم وبما يصلح لهم ويصلحهم من أنفسهم.

2_ إن منع الله ذلك عنهم إما أن يكون لجهله بحاجتهم وهو العالم المطلق، وإما لعجزه وهو القادر المطلق، وإما لبخله وهو الجواد المطلق.

3_ إن كل شخص يستطيع أن يدعي نقل التكليف الإلهية ومقام النيابة والسفارة عن الله، بل هذا هو الواقع، إذ ما أكثر مدعي النبوة عبر التاريخ، وإلى يومنا، فلا طريقة لكشف صدق ذلك المدعي من كذبه إلا من خلال المعجزة، أي أن يأتي بشيء خارق للعادة، فيكون سماح الله له بخرق العادة دليلاً على صدقه وصدق دعواه.

إشكال إمكانية إجراء المعجز على أيدي الكذابين

وقد يقال: ولكن أي مانع من أن يجري الله المعجزة على أيدي الكذابين؟ وأي ملزم لله تعالى بأن يمتنع من إجراء المعجزة على يد الكاذب؟

الجواب: إن الله لا يجري مثل ذلك على يد الكاذب، لأن فيه إغراء للناس بالجهل، أي تضليلاً لهم، وهو فعل لا يصدر عن الحكيم، ويتنزّه عنه، فكونه تعالى حكيماً لا يفعل العبث يستلزم أن لا يخدع الناس بإجراء خوارق العادات على أيدي الدجالين، قال تعالى: (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين).

خير المعجزات ما ناسب فنون العصر

إن من الشروط التي تجعل المعجزة مقبولة لدى الغالبية العظمى من الناس أن تكون متناسبة مع الفن الشائع في عصرها، فمثلاً في عصر موسى (عليه السلام) كان الناس مهتمين بالسحر والكثير يمارس هذا الأمر، وكان للساحر مكانة ومنزلة فجاءت معجزته وهي العصا التي تتحول إلى أفعى واليد التي تشع مناسبة لذلك.

وفي عصر عيسى (عليه السلام) شاع الطب وازدهر خصوصاً الطب اليوناني، والذي كان له رواج باهر في سوريا وفلسطين بحكم كونهما مستعمرتين لليونان، فجاءت معجزة عيسى من هذا القبيل، فكان يُبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى.

وأما في عصر النبي فقد اهتم العرب اهتماماً كبيراً بالأدب والشعر، وكانت لهم مواسم وأسواق خاصة يتنافسون فيها ويتباهون بعرض بضائعهم الأدبية، فجاءت معجزة النبي من هذا السنخ فكانت معجزة البيان، ليتضح جلياً لكل عربي عارف باللغة متذوق

لأساليبها الجمالية وروعيتها أن هذا الكلام خارج ببلاغته وإبداعه عن مقدور البشر وقدراتهم.

ميزات المعجزة القرآنية

أولاً: الخلود: الفرق الأساس بين القرآن والمعجزات الأخرى أن تلك المعجزات آنية، والقرآن معجزة خالدة، أي إن إعجازها مستمر.

ثانياً: الشمولية: فالقرآن موجّه للجميع وعلى مختلف الأبعاد.

1_ البعد الشخصي: فهو لكل الأفراد الذكر والأنثى والحر والعبد والغني والفقير: (إني رسول الله إليكم جميعاً).

2_ البعد المكاني: لكل الأزمنة: (أوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ).

3_ البعد الزمني: لكل الأزمنة: (كافة للناس بشيراً ونذيراً).

4_ البعد الموضوعي: إذ يتناول كافة الجوانب والتفاصيل المرتبطة بحياة الإنسان: (تبياناً لكل شيء)، (ما فرطنا في الكتاب من شيء).

وجوه الإعجاز القرآني

1_ الإعجاز البلاغي

الإعجاز القرآني منصب في الأصل على هذا الجانب، وهو الذي تحدى به القرآن أن يأتوا بسورة مثله، فقد كان القرآن نمطاً خاصاً من الكلام ليس بشعر ولا نثر، ولكنه كلام بديع للغاية أخذ بمجامع القلوب، لم يستطع العرب من أهل الفصاحة والبلاغة أن يجاروه أو أن يأتوا بنظيره، وما لجؤهم إلى مقارعة الكلمة بالسيف إلا دليل على عجزهم وقلة حيلتهم في قبالة هذا. مع أنهم شهدوا له واعترفوا بعلو المقام ورفعة القدر، بل أنه ليس من كلام البشر كما قال الوليد بن المغيرة المخزومي.

فقد نقل أن النبي (صلى الله عليه وآله) (لما أنزل عليه) (حم) تنزّل كتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي (صلى الله عليه وآله) لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى عليه).

ونقل أن خالد بن عقبة (جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: اقرأ عليّ القرآن، فقرأ عليه: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى إلى آخر الآية، فقال له: أعد فأعاد، فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر).

وقال أبو العلاء المعري: (وأجمع ملحد ومهتد وناكب عن المحجة ومقتدٍ أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله كتاب بهر بالإعجاز ولقي عدوه بالأرجاز، ما حذا على حذو مثال...).

وعن هشام بن الحكم قال: (اجتمع ابن ابي العوجاء، وأبو شاعر الديصاني الزنديق ، وعبد الملك البصري، وابن المقفع، عند بيت الله الحرام، يستهزؤون بالحاج ويطعنون بالقرآن .

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كل واحد منا ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضوع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله ، فإن في نقض القرآن إبطال نبوة محمد، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام، وإثبات ما نحن فيه، فاتفقوا على ذلك وافترقوا، فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية: (فلما استياسوا منه خلصوا نجيا)، فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجميع معانيها شيئاً، فشغلنتني هذه الآية عن التفكير في ما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذر فارقتكم مفكر في هذه الآية (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)، ولم أقدر على الإتيان بمثلها. فقال أبو شاعر: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) لم أقدر على الإتيان بمثلها .

فقال ابن المقفع: يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) لم أبلغ غاية المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها .

قال هشام بن الحكم : فبينما هم في ذلك، إذ مر بهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)).

أمثلة على الإعجاز البلاغي:

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين).

(ولكم في القصص حياة يا أولي الألباب).

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق).

(إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور).

(تكاد تميّز من الغيظ).

(وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي)¹.

2_ الإعجاز المعرفي

إن من جوانب الإعجاز هو المنظومة العقديّة المعرفية التي طرحها القرآن، والتي تعكس انسجاماً كاملاً مع معطيات العقل السليم في مجال التوحيد والعدل وسائر الصفات الإلهية، وكذلك المعاد، مما يختلف بشكل كبير عما كانت تطرحه الرؤية اليهودية وكذا النصرانية.

3_ الإعجاز التشريعي

فقد جاء القرآن بمنظومة تشريعية متكاملة ومنسجمة تمثل قفزة هائلة قياساً بالتشريعات والأفكار التي كانت سائدة في ذلك الزمان، ومثل تلك المنظومة لا يمكن أن تكون وليدة فكر شخص يعيش في تلك الفترة الزمنية، وفي ذلك المجتمع القبلي المتخلف. ومن ذلك: التشريعات في مجال الزواج والطلاق والحقوق الزوجية والميراث وحقوق الأولاد والمعاملات وفقه الحرب والفقهاء الجنائي وأحكام الشهادات والعلاقات الدولية وأحكام الأجانب والاقتصاد وتوزيع الثروة والضرائب.

4_ الإعجاز الغيبي

حيث أخبر القرآن عن أمور ستحدث، وقد وقعت كما أخبر، ومن ذلك مثلاً إخباره بانتصار الروم على الفرس بعد عدة سنين، وذلك في قوله تعالى: (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين..). فكان ما أخبر به.

ومن الإخبار بالمغيبات إخباره بدخول مكة، وذلك في قوله تعالى: (لقد صدق الله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، محلّقين رؤوسكم ومقصرين..).

وذلك أن النبي أري في منامه وهو في المدينة أنه يدخل مكة وأخبر المسلمين، ثم خرجوا متجهين إلى مكة، فصدّهم المشركون في منطقة الحديبية، ومنعواهم من دخولها، فشق ذلك على المسلمين، فنزلت الآية: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين).

وتحقّق ما أخبر به القرآن، حيث دخل المسلمون مكة وفتحوها بعد أقل من عامين.

5_ الإعجاز العلمي

¹ يطلب من الطالبات البحث عن وجوه الجمال والإبداع البياني في هذه الآيات.

ومما يدخل كذلك في باب الإعجاز الإخبار عن الحقائق العلمية التي لم يكتشفها الإنسان إلا في العصر الحديث، وهو ما يمكن إن ندعوه بالإشارات العلمية.

ومن ذلك الحديث عن تمدد الكون وكروية الأرض وغزو الفضاء وتناقص الأوكسجين في الطبقات العليا من الجو وقانون الزوجية وقضية البصمات.

قال تعالى: (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي). وقال: (فلا أقسم برب المشارق والمغرب). وقال: (ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء لظلوا فيه يعرجون). وقال: (ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء). وقال: (ومن كل شيء خلقنا زوجين). وقال: (بلى قادرين على أن نسوي بنانه).

6_ عدم التهافت والتناقض

إن أي بشر يكتب كتابًا يطرح فيه موضوعات مختلفة وكثيرة، ويتناول أمورًا دقيقة، وينقل قصصًا ووقائع، ويتعرض لبيان حقائق كونية واعتقادات ورؤى فلسفية وغير ذلك مما طرحه القرآن لا يمكن أن يسلم كلامه من التهافت والتناقض، فيذكر أمرًا ثم يورد في موضع آخر ما ينافيه ولو بالملازمة.

ولذا تجد اي كتاب مهما علا شأنه تُعمل بشأنه الدراسات النقدية وتطرح عليه الإشكالات، وهذا طبيعي لأن كاتبه غير معصوم.

فحين نجد كتابًا مع تنوع وكثرة الموضوعات التي تعرض لها، إذ تعرض للعقائد والتاريخ والأحكام الشرعية والحقائق الكونية وعلوم السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، وكذلك كثرة الأفكار والدقائق والتفاصيل التي تعرض إليها... حين نجده مع كل ذلك خاليًا من التهافت والتناقض، فهذا وجه من وجوه إعجازه، ودليل على كونه ذا مصدر إلهي.

ولذا فقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الجانب الإعجازي بالقول:

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا).

وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) في مدح القرآن:

(له ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائب، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة).

وعن أمير المؤمنين علي في بيان أبعاد القرآن غير المتناهية من خطبه له يصف فيها القرآن: (ثم أنزل عليه الكتاب نورًا لا تطفأ مصابيح، وسراجًا لا يخبو توقده، وبحرًا لا يدرك قعره...)

وبحرًا لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون).

نزول القرآن

تلقى النبي القرآن عن طريق الوحي. وسبب التعبير بالنزول، لأنه كان يتلقى القرآن من جهة عليا معنوية.

معنى الوحي

الوحي لغةً هو: الإعلام في خفاء. قال تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم). وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًّا شياطين الإنس والجنّ، يوحي بعضهم إلى بعضٍ زُخرف القولِ غُورًا).

واصطلاحًا: هو الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله برسله وأنبيائه لإعلامهم بما يريد.

وقيل: إعلام الله أنبياءه ورسله بما يريد أن يبلغه من شرع أو كتاب بوساطة أو بغيرها.

صور الوحي

- 1-إلقاء المعنى في الروح، ويُسمّى الإلهام. قال تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى).
 - 2-تكليم النبي من وراء حجاب، وذلك بخلق الصوت. كما كلّم موسى من الشجرة.
 - 3-نزول ملك الوحي على النبي إما بصورته الحقيقية أو بصورة بشر.
- قال تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسلَ رسولاً فيوحىَ بإذنه ما يشاء)².

وهناك طريقة رابعة للوحي مستفادة من القرآن والروايات، وهي الرؤيا في المنام. قال تعالى: (فلما بلغ معه السعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى، قال: يا أبتِ افعل ما تؤمر). وفي الرواية: (رؤيا الأنبياء وحي).

ومن المهم هنا التأكيد على أن هذه القضية ثابتة للأنبياء فقط، ومن ثمّ فلا تُعتبر رؤية غيرهم وحياً، وليست حجة في إثبات تكليف أو حكم شرعي.

² ويمكن أن تكون الطريقة الثالثة على ثلاثة أشكال:

أ-يسمع النبي الملك ويراه بصورته الحقيقية

ب-يسمعه ويراه بصورته البشرية

ج-يسمعه ولا يراه. أي يسمع الصوت ولا يرى الشخص.

وروي عن علي ع في باب أقسام الوحي:

(وكلام الله ليس بنحو واحد ، منه : ما كلم الله به الرسل ، ومنه ما قذف في قلوبهم ، ومنه رؤيا يراها الرسل ، ومنه وحي وتنزيل يتلى ويقرأ ، فهو كلام الله عز وجل)³.

مصاديق الوحي

1-القرآن

2-الحديث القدسي: وهو الكلام غير القرآني الذي ينقله النبي عن الله تعالى.

3-الحديث النبوي: وهو أيضًا وحي، لأنه يحكي مرادات الله، ولذا قال القرآن عن النبي: (وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيُّ يُوحى).

يحتمل أن يكون الضمير (هو) عائداً على القرآن. و يحتمل عودته على كلام النبي، لأن الضمير السابق عائد عليه، أي الضمير المقدر في (ينطق)، أي ما ينطق النبي عن الهوى، (إن هو إلا وحي) أي ما ينطقه النبي وحي.

ويُلحَق بالحديث النبوي أحاديث المعصومين في مدرسة أهل البيت ع، فإنها كلها داخلة ضمن مصاديق الوحي.

صيغ وردت في القرآن الكريم تعبّر عن الوحي

التلقّي: (فتلقّى آدم من ربه كلمات، فتابّ عليه).

المناداة: (وناديناها أن يا إبراهيم).

العهد: (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي)، (وعهدنا إلى آدم من قبل فنسي).

التفهيم: (ففهمناها سليمان).

كيفية نزول القرآن

في رأي كثير من العلماء أن للقرآن نزولين:

أحدهما دفعي، والآخر تدريجي.

الدفعي: يعني نزول القرآن دفعة واحدة، حيث نزل على قلب النبي، وقيل نزل إلى البيت المعمور في السماء الرابعة.

التدريجي: هو نزوله طيلة فترة البعثة بحسب الأحداث والمناسبات.

³ الاحتجاج: ج1، ص362.

وقيل بأن النزول الدفعي لم يكن بالنص، بل كان نزولاً إجمالياً، أي (نزول المعارف الإلهية التي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكبرى على قلب النبي لكي تمتلئ روحه بنور المعرفة القرآنية)⁴.

وربما استدل على مقولة النزولين باستخدام القرآن الكريم لاصطلاحين، هما التنزيل والإنزال.

قال تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر)، وقال: (أنزلناه في ليلة مباركة). وقال في الجانب الآخر:

(وقرآنًا فرقناه لنقرأه على مكث ونزلناه تنزيلاً)⁵.

ولكن لو رجعنا إلى معاجم اللغة لما وجدنا مثل هذا الفرق⁶.

كما أننا نجد في القرآن استعمالاً للتنزيل بمعنى الدفعة: (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لثبتت به فؤادك، ورتلناه ترتيلاً).

وقد قال بالفرق بين التنزيل والإنزال الزمخشري، وتبعه الرازي.

والنتيجة أن هذا الاستدلال على النزولين في غير محله.

الدليل الصحيح على النزولين

الدليل على وجود نزولين للقرآن هو الروايات. فقد روي عن ابن عباس أنه قال:

(نزل في رمضان في ليلة القدر، وفي ليلة مباركة، ثم أنزل على مواقع النجوم، ترتيلاً في الشهور والأيام).

وفي الكافي بسنده (عن حفص بن غياث، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته، عن قول الله عز - وجل: " شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " وإنما أنزل في عشرين سنة بين أوله وآخره؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثم نزل في طول عشرين سنة)⁷.

ويمكن الاستدلال على أن للقرآن نزولين بطريقة أخرى، وهي:

إن القرآن قال: (إنا أنزلناه في ليلة القدر). والهاء تعود على القرآن، والظاهر منها أنزلناه بأجمعه، فهذا يفيد أن للقرآن نزولاً بكامله. ونحن نعلم من متواتر الروايات، وظواهر العديد من الآيات، بل بالضرورة أن القرآن كان ينزل طيلة 23 سنة بحسب المناسبات، ومنه نستنتج أنّ للقرآن نزولين دفعي وتدرجي.

⁴ علوم القرآن، محمد باقر الحكيم ص27.

⁵ الإسراء: 107.

⁶ يلاحظ مثلاً: لسان العرب لابن منظور، باب (نزل).

⁷ الكافي: ج2، ص628.

ولكن قد يُقال: إن المقصود من (أنزلناه في ليلة القدر) أي ابتدأنا بإنزاله، أي أنزلنا أوله في ليلة القدر! من باب ذكر الكل وإرادة الكل، على نحو المجاز المرسل.

ولكنه خلاف الظاهر. نعم بعضهم قال: ليس من باب المجاز، ولكن بحسب الاستقراء، فإن صيغة (فعل) تستعمل كثيراً بمعنى بدأ الفعل، فيكون معنى أنزلناه، أي بدأنا إنزاله! وعهدة هذا القول على قائله.

وأياً كان فالظاهر وجود نزولين للقرآن الكريم، أي وجود نزول دفعي بالإضافة إلى التدريجي المتفق عليه، والله العالم.

أسرار النزول التدريجي

هناك عدة أسباب يمكن طرحها هنا:

1- تثبيت فؤاد النبي: قال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جُملةً واحدة، كذلك لثبَّتَ به فؤادك، ورتلناه ترتيلاً)⁸. فقد كان نزول القرآن على النبي بمثابة المدد والسند والداعم النفسي الكبير له ليستمر ويتابع في دعوته مهما كانت المصاعب والشدائد.

ولذا نجد آيات التسليية والتثبيت: (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا)، (قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك..)، (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل).

2- إن القرآن ليس كتابًا مؤلفًا لأغراض التعليم أو البحث العلمي، بل هو كتاب هدفه إحداث التغيير في حياة الناس الذي نزل بين ظهرانيهم، ومن الواضح أن التغيير يقتضي التدريج والمرحلية، ليقف الناس على المعارف القرآنية الجديدة ويستوعبوها شيئًا فشيئًا، ويتمكنوا من التخلص مما تربوا وتعودوا عليه من الأفكار والسلوكيات الخاطئة.

ولذا قالت الآية: (وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ ونزلناه تنزيلاً).

3- من أجل الرد على الإشكالات والأسئلة والشبهات والإثارات التي تتولد لدى الناس، إضافة إلى حدوث مواقف تقتضي إعطاء أخلاقي أو اجتماعي أو سياسي أو فقهي معين.

(يسألون عن الروح) (يسألونك عن المحيض..)، (يسألونك عن الكلاله...)، (يسألونك عن الأهله)، (يسألونك ماذا ينفقون)، (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله)، (الذين قال لهم الناس، إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم).

4-إظهار وجه آخر للإعجاز القرآني، حيث إنه نزل بشكل مفرّق، بحسب الحوادث، لكنه حين جُمع ورُتّب بأمر الوحي، لم يُرتّب على تلك الطريقة التي نزل بها، ولكن مع ذلك فقد رُتّب بطريقة تجد فيها التناسق والترابط اللافت والبديع، وكأن السورة الواحدة لوحة جميلة متناسقة الألوان والظلال.

أسباب نزول القرآن بالعربية

من جملة أسباب ذلك:

- 1-الميزات التي تتمتع بها اللغة العربية في ثراء المفردات والأساليب البيانية والصوتية والاشتقاقية مما يجعلها من أحسن اللغات مناسبة للإبداع والتفنن القولي.
- 2-إن الحاضنة التي نزل فيها القرآن هي حاضنة عربية، فمن الطبيعي أن يكون بالعربية، وهذا ما أشار إليه القرآن نفسه بقوله:
(ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا لو لا فُصِّلَت آياته). فصحيح أن القرآن موجّه للبشرية جمعاء، لكن الجماعة المراد مخاطبتها بالدرجة الأولى هم العرب.

أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل

هناك أكثر من قول بهذا الشأن، لكن المعروف أن أول ما نزل من الآيات هو قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق).

وأما آخر ما نزل، فقيل آية الربا (اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا... فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله)، وقيل: (واتقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله، ثم تُوفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يُظلمون).

وقيل: (اليوم أكملت لكم دينكم).

وأما السور، فأول سورة نزلت بتمامها هي سورة الحمد، وآخر سورة هي (إذا جاء نصر الله والفتح).

أسباب النزول

سبب النزول، أي ما نزلت من أجله الآية، أو قصة نزولها.

إن آيات القرآن على مجموعتين:

الأولى: نزلت دون سبب، وإنما كان نزولها ابتداءً بقصد الهداية والتربية، ككثير من آيات المعاد والقيامة والجنة والنار وقصص الأنبياء وغير ذلك.

الثاني: نزلت بسبب، كمشكلة تعرض لها النبي تحتاج إلى حل، أو سؤال وُجِّه إليه أو حادثة لا بد من التعليق عليها.

كقصة الإفك (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبه منكم...)، والتي تم فيها اتهام إحدى زوجات النبي بالفاحشة، وكقصة مسجد ضرار (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكُفراً وتفرقاً بين المؤمنين..). الذي بناه المنافقون ليكون مكاناً لتآمرهم والتخطيط لفسادهم وبتّ الفتنة والمشاكل بين المسلمين.

ومن ذلك نزول الآيات الأولى من سورة المجادلة: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله) والآيات الأولى من سورة الحجرات (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله... يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي...). والآيات الأولى من سورة التحريم (يا أيها النبي لم تحرم ما أحلّ الله لك، تبتغي مرضاة أزواجك... إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما..).

وكقوله: (ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيا أحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً)،

وهكذا القصص التي تتعلق بالمعارك التي خاضها النبي، وكثير من التفاصيل التي وقعت فيها. ومن ذلك معركة بدر ومعركة أحد ومعركة الخندق ومعركة حنين.

فائدة معرفة أسباب النزول

لا شك أن لسبب النزول أهمية في فهم مدلول الآية بشكل صحيح.

فبعض التفاصيل والملابس لا يمكن فهمها إلا بعد الوقوف على سبب نزول الآية، بل قد يفهم أمر غير مقصود إذا لم نطلع على سبب النزول.

وهناك أمثلة عديدة على ذلك.

فمثلاً قوله تعالى (ولله المشرق والمغرب، فأينما تولّوا فثمّ وجه الله، إن الله واسع عليم).

يفهم منه أن الصلاة جائزة إلى أي جهة كانت، إذ الجهات كلها لله تعالى!

وهذا يتنافى مع قوله تعالى: (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره).

ولا يرتفع الإشكال إلا بعد مراجعة سبب النزول، فروي: (إنها نزلت في صلاة التطوع على الراحلة، تصليها حيثما توجهت إذا كنت في سفر).⁹

وأما الصلاة الواجبة، فلا تصح إلا بالتوجه إلى القبلة.

⁹ مجمع البيان: ج1، ص358.

ومن الأمثلة على أهمية معرفة سبب النزول قوله تعالى: (ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين).

إذ كان بعضهم يرى أن الخمر حلال ويحتج بهذه الآية¹⁰! ولكن بمراجعة سبب النزول يتضح الأمر.

فقد نقل أنه (لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة : يا رسول الله! ما تقول في إخواننا الذين مضوا وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر ؟ فأنزل الله هذه الآية)¹¹.

أي السؤال عن المسلمين الذين ماتوا قبل تحريم الخمر والقمار، وكانوا يتعاطون هذه الأمور، فجاءت الآية لتقول إنه لا إثم عليهم في ذلك، لأنهم أكلوه قبل التحريم.

ومن ثمّ، فلو لم نعرف سبب النزول لكنا وقعنا في مشكلة كبيرة في فهم الآية.

ومن هذا القبيل قوله تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوّف بهما).

فالذي يبدو من الآية أن السعي بين الصفا والمروة أمر جائز، أي ليس واجباً، لأنه يقول: لا مانع لمن حج أن يطوف بالصفا والمروة، أو لا بأس بهذا الأمر، ومنه يستشف عدم وجوبه، إذ لو كان واجباً، فلماذا يقول: (لا جناح عليه)!

والجواب: إن سبب النزول يوضح لنا الصورة، فقد روي عن الصادق أنه (كان المسلمون يرون أن الصفا والمروة مما ابتدئ أهل الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية)¹². أي كانوا يتصورون حرمة ذلك الفعل فبيّن لهم القرآن أن هذا التصور غير صحيح، وأن هذا العمل ليس حراماً.

ومن ثمّ فلا يدل مثل هذا الكلام على أنه غير واجب.

تعدد الأسباب والنازل واحد

وتعدد النازل والسبب واحد

قد تنزل بعض الآيات أو السور أكثر من مرة، وذلك لتكرر سبب يفضي إلى نزولها ثانية، وقد ذكر مثل ذلك في سورة الإخلاص، حيث نقل أنها نزلت مرتين، إحداهما بمكة جواباً للمشركين، والثانية بالمدينة جواباً لأهل الكتاب¹³.

¹⁰ البرهان: ج1، ص28.

¹¹ مجمع البيان: ج3، ص412.

¹² المصدر نفسه: ج1، ص445.

¹³ البرهان، ج1، ص30.

وذكروا أيضاً أن الفاتحة نزلت مرتين¹⁴، مرة بمكة ومرة بالمدينة .
وقد يكون العكس أي يكون هناك أكثر من نازل بسبب نزول واحد.

كما نقل أن أم سلمة سألت النبي: (لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟).

فنزل قوله: (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم..). وروي أنها قالت: (يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء). فنزل: (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات... أعد الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا)¹⁵.

وبناء على هذا فحين نجد خلافاً في آية أو آيات بشأن نزولها، وأن هناك أقوالاً متعددة، فلا يسعنا أن نعتبرها متعارضة، إذ قد تكون كلها صحيحة وأن الآية أو الآيات تكرر نزولها. فالالتفات إلى هذا الأصل يحل لنا إشكالية اختلاف أسباب النزول في المورد الواحد.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

قاعدة مهمة تتعلق بأسباب النزول

مما اتفق عليه علماء الأصول والتفسير أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أي إن نزول الآية في حادثة معينة لا يجعل الحكم الوارد فيها مرتبطاً بتلك الحادثة فقط، بل هو عام لها ولما يشبهها. وهذه القاعدة عبّروا عنها أيضاً بالقول: (المورد لا يخصص الوارد).

فمثلاً نزول آية الظهر بشأن أوس بن الصامت حين ظاهر زوجته خولة بنت خويلد: (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله، وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم)¹⁶.

هذا لا يجعل الآية مختصة بهما، بل هي شاملة لكل الموارد المشابهة، لأن العبرة بعموم اللفظ.

وهكذا آية اللعان: (والذين يرمون أزواجهم، ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين...)¹⁷.

¹⁴ البرهان، ج1، ص30.

¹⁵ الإتيان، ج1، ص99.

¹⁶ المجادلة: 3_4.

¹⁷ النور: 6.

ولذا روي عن الباقر ع: (إن القرآن حي لا يموت ، والآية حية لا تموت ، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن! ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين)¹⁸.

المكي والمدني

من جملة المباحث التي تداولها العلماء في ما يتعلق بالقرآن الكريم هو بحث المكي والمدني

قيل: نزل بمكة اثنتان وثمانون سورة وبالمدينة اثنتان وثلاثون¹⁹.

الاتجاهات في تفسير المكي والمدني

هناك عدة توجهات وآراء في تفسير المكي والمدني:

الأول: المكي: ما كان فيه الخطاب ب(أيها الناس)، والمدني: ما كان ب(يا أيها الذين آمنوا). وذلك باعتبار أن أهل مكة لم يكونوا مسلمين، وأهل المدينة كان غالبيتهم مسلمين.

الثاني: المكي: ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة.

الثالث: المكي: ما نزل قبل الهجرة سواء أنزل بمكة أم في غيرها، والمدني ما نزل بعد الهجرة سواء أنزل بالمدينة أم غيرها.

مناقشة الأقوال والترجيح بينها

إن القول الأول يرد عليه أن (يا أيها الناس) لا يقصد به أهل مكة فقط ليكون خطاباً لهم وحدهم، بل سائر الناس في مكة وغيرها، وكذا (يا أيها الذين آمنوا) لا يشمل أهل المدينة فقط، بل كل المؤمنين في المدينة وغيرها. وأيضاً توجد آيات نزلت بمكة مبدوءة ب(يا أيها الذين آمنوا) كآية 77 من سورة الحج. وآيات نزلت بالمدينة تبدأ ب (يا أيها الناس) كما في الآية 21 من سورة البقرة. وهناك إشكال ثالث، وهو أن أكثر الآيات تخلو من هذين الخطابين بالمرّة، فستخرج عن التصنيف، أي تصبح لا مكية ولا مدنية.

والقول الثاني أيضاً يرد عليه الإشكال الأخير، وهو خروج الكثير من الآيات عن التصنيف، وهي التي لم تنزل لا في مكة ولا في المدينة، كآتي نزلت في الطائف أو الحديبية أو في بدر وأحد، ولو فُرض إدخال الطائف والحديبية ضمن مكة، وبدر وأحد

¹⁸ تفسير العياشي، ج2: ص203.

¹⁹ ينظر تاريخ البعقوبي، ج2، ص33 و43.

ضمن المدينة، لأنها تعد من الضواحي، فيبقى ما نزل في خارج هاتين المنطقتين كأسفار النبي خارج التصنيف.

فالقول الثالث هو المختار، لما يتميز به من الشمول، إذ يمكن بناءً عليه تصنيف جميع الآيات القرآنية، ومن جهة أخرى فإن الهجرة كانت حادثة كبرى، ومفصل تاريخي كبير بين مرحلتين متميزتين من الدعوة، كلٌ لها ميزاتهما وخصوصياتهما.

فالأولى مرحلة الدعوة والكفاح من أجل بث العقيدة الصحيحة وتكوين القاعدة المؤمنة الصادقة، والثانية هي مرحلة إقامة الدولة والحكومة وتطبيق الدين.

فوائد معرفة المكي والمدني

فائدة ذلك تتلخص في الوقوف على مراحل سير الدعوة الإسلامية وانتقالها من طور إلى آخر، لفهم كيفية حصول ذلك التغيير الاجتماعي الهائل، ودراسة الأدوات التي استخدمها النبي في كل مرحلة، ومن ثمّ فهم النظرية الإسلامية لإحداث التغيير الاجتماعي.

طريقة تمييز المكي والمدني

هناك طريقتان:

1- الطريقة الاستقرائية: وهي تعتمد على النصوص والروايات التاريخية التي تؤرخ للسورة أو الآية وتحدث عن مكان نزولها.

2- الطريقة الاستنباطية: وتعتمد على استخراج خصائص وسمات كل من المكي والمدني من خلال استقراء القسم الذي ورد فيه نص يحدد أنه مي أو مدني، ثم تطبيق ذلك على السور والآيات التي لم يرد بشأنها نص لمعرفة مكيتها من مدنيها.

هذا ولن تبقى الطريقة الثانية طريقة تخمينية قد تصيب وقد لا تصيب، لأن تلك الخصائص تعبر عن الأعم الأغلب من الآيات أو الحالة الغالبة لها لا عن جميعها.

خصائص المكي والمدني

خصائص القسم المكي:

1- قصر الآيات والسور بصورة عامة.

2- الحديث عن أصول العقيدة كالإيمان بالله واليوم الآخر، والحديث عن القيامة ومشاهد الحساب والجنة والنار.

3- الدعوة إلى التمسك بالخلق الرفيع وفعل الخير.

4- مجادلة المشركين وإبطال عقائدهم وتسفيه أحلامهم.

5- كثرة استعمال القسم بالله واليوم الآخر والبعث والقرآن وغير ذلك.

6- كثرة استعمال (يا أيها الناس)، وندرة استعمال (يا أيها الذين آمنوا).

7- كثرة قصص الأنبياء والأمم وقصة آدم وإبليس.

خصائص القسم المدني

1- طول السور والآيات.

2- محاورة أهل الكتاب.

3- الحديث عن المنافقين وكشف مؤامراتهم وتهديدهم.

4- الحديث عن الجهاد وبيان أحكامه.

5- تفصيل أحكام الشريعة في أبواب الحدود والفرائض والحقوق والمواريث والقوانين السياسية والاقتصادية والمعاهدات الدولية.

6- تفصيل الأدلة والبراهين على الحقائق الدينية.

ولكن تبقى هذه الصفات غالبية كما أشرنا، ولذا فقد تكون الآية مدنية وتنطبق عليها بعض الخصائص المكية، فمثلاً من الآيات المدنية التي تحمل الخصائص المكية:

(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم). البقرة: 21.

(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً). البقرة: 168.

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم). النساء: 1.

(إن يشأ يذهبكم أيها الناس..). النساء: 133.

ومن المكية التي تحمل خصائص مدنية:

قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). الحج: 77.

وكذا بالنسبة لخصيصة قصر سور القسم المكي وطول سور المدني، إذ نجد أن سورة النصر وهي تتألف من ثلاث آيات هي مدنية، وكذا الزلزلة والبيّنة، وكل منهما ثماني آيات.

في حين أن الأنعام والأعراف مكيّتان في غالب آياتهما مع أنهما من السور الطوال.

وهناك ملاحظة أخيرة، وهي أنه حين نصف سورة بأنها مكية أو مدنية فإن ذلك لا يعني أن كل آياتها كذلك، بل الوصف يرتبط بمطلع الآيات، فإن كان مطلعها نزل بمكة تعد مكية، وإن كان بالمدينة عدت مدنية.

جمع القرآن وتدوينه

متى تم جمع القرآن الكريم؟ في زمن النبي أم في زمن أبي بكر أم في زمن عثمان؟
الجمع له عدة معانٍ:

1- كتابته في ألواح وصحف، ولكن بشكل مفرّق، وهذا حصل في زمان النبي، ولكن كانت السور معلومة، وترتيب الآيات فيها معلوم.

2- جمعه في كتاب واحد، وهو ما حصل في زمان أبي بكر.

3- الجمع على قراءة واحدة، وهو ما حصل في زمن عثمان.

الشواهد على تدوين القرآن في زمان النبي

1- اهتمام النبي الشديد بالقرآن وحرصه على تعليمه لأصحابه، وأمرهم بحفظه، ولذا قام بحفظه مئات المسلمين في زمن النبي.

وقد مرت معنا رواية أبي عبد الرحمن السلمي قال: (حدثنا من كان يقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله (صلى الله عليه وآله) عشر آيات فلا يأخذون العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل)²⁰.

وروي عن ابن مسعود قوله: (ولقد قرأت من لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سبعين مرة)²¹.

وعن ابن عباس قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا القرآن)²².

2- إنه دستور المسلمين الحاوي على عقيدتهم وفقههم وأحكامهم، ومعجزة النبي الخالدة.

ومع هذا فكيف يُعقل أن يهمله النبي، ويتركه في معرض الضياع أو التحريف بترك تدوينه وكتابته؟! إن تركه دون كتابة مع أهميته البالغة بالنسبة للنبي والإسلام أمر غير منطقي.

3- حديث الثقلين، وهو قوله (ص):

²⁰ منية المرید للشهيد الثاني ص 68.

²¹ جامع البيان للطبري ج 1، ص 28.

²² مسند أحمد ج 1، ص 292.

(إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي)²³.
فقوله (تارك كتاب الله) يدل على كونه مكتوبًا ومعلومًا ومشخصًا.

4-آيات التحدي: تحدي المشركين بأن يأتوا بمثل القرآن، كما في قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا).

وهذا يعني أن القرآن كان مدوّنًا، وإلا لما جاز التحدي به!

5-الروايات الصريحة التي تتحدث عن تدوين القرآن في زمان النبي، وأنه كان يأمرهم بتدوينها ويحدد لهم أماكن وضع الآيات²⁴.

قال الحارث المحاسبي: (إنه كان (ص) يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقًا في الرقاع والأكتاف والعسب...)²⁵.

وقال زيد بن ثابت: (فتتبعث القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال...)²⁶.

وقوله (وصدور الرجال) لا يعني أن قسمًا منه لم يكن مدوّنًا، بل المقصود من تتبّعهُ أنه كان يستعين بحفظ الرجال الذين حفظوا ولم يدوّنوا لتأكيد ما هو مدوّن عند غيرهم. وهذا فيه مزيد استيثاق وضبط.

والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل، واللخاف جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة الرقيقة. والرقاع جمع رقعة، وتكون من جلد أو ورق، والأكتاف جمع كتف، وهو عظم البعير أو الشاة يُكتب عليه بعد جفافه.

ومما يؤكد تدوين القرآن كاملاً عند جماعة من الصحابة على عهد النبي ما روي عن أنس: (جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار)²⁷. وفي رواية ستة²⁸.

وهذا لا يعني أن هؤلاء فقط هم الذين جمعوه فقط، إذ قد يكون هؤلاء من المشهورين بجمعه لأن روايات أخرى تدل على أنه جمعه غيرهم الكثير.

²³ مختصر بصائر الدرجات: ص90. وهذا الحديث متواتر عن النبي (ص). ينظر على سبيل المثال: سنن الترمذي ج5، ص328، المصنف لابن أبي شيبة ج7، ص418، السنة لابن أبي عاصم ص337.

²⁴ نُقِلَ أن جبريل كان يقول (أي للنبي): (ضعوا آية كذا في موضع كذا). البرهان للزركشي: ج1، ص256.

²⁵ البرهان للزركشي ج1، ص238.

²⁶ المصدر نفسه ج1، ص233.

²⁷ صحيح البخاري ج4 ص229.

²⁸ مجمع الزوائد ج9، ص312.

فقد روي عن الوليد بن جميع (قال حدثتني جدتي عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحرث الأنصاري وكانت قد جمعت القرآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمرها أن تؤم أهل دارها وكان لها مؤذن وكانت تؤم أهل دارها)²⁹.

وروي زيد بن ثابت، قال :

(كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نؤلف القرآن من الرقاع)³⁰.

(و قال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ، وقتل في عهد النبي - ص - ببئر معونة مثل هذا العدد)³¹.

وموقعة اليمامة حصلت في أيام أبي بكر، أي في وقت قريب من زمان النبي (().

والقراء هم الذين كانوا يحفظون القرآن ويدونونه ويعلمونه للآخرين.

جمع الإمام علي للقرآن بعد وفاة النبي

الذي يبدو من الرويات أن عليًا (ع) قام بذات العمل الذي قام به الكثير من المسلمين، أي جمع الألواح والصحف المفردة للقرآن، وضمها ونسّقها لتشكّل كتابًا واحدًا.

روي أن عليًا قال بعد وفاة رسول الله: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي وأوصاني أن إذا واريته في حفرته لا أخرج من بيتي حتى أولف كتاب الله ، فإنه في جرايد النخل وفي أكتاف الإبل)³².

ولكن يبدو من بعض الروايات أن القوم لم يقبلوا منه القرآن الذي جمعه.

فقد روى الكليني أن عليًا بعد أن جمع القرآن قال: (هذا كتاب الله عز وجل كما أنزله [الله] على محمد (صلى الله عليه وآله) وقد جمعته من اللوحين فقالوا : هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه ، فقال أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبدًا)³³.

ولكن هذا لا يدل على أن القرآن الذي جمعه الإمام يختلف عن القرآن الذي جمعه تنزيلًا.

بل الظاهر أن الإمام أضاف شروحًا وتعليقات تتعلق بأحكام القرآن وتفسيره ونزوله وتأويله، ولذا لم يقبلوه.

ففي رواية أنه (ع) قال لطلحة بن عبيد الله: (يا طلحة إن كل آية أنزلها الله جل وعلا على محمد عندي بإملاء رسول الله وخط يدي ، وتأويل كل آية أنزلها الله على محمد

²⁹ مسند أحمد ج6، ص405.

³⁰ مسند أحمد ج5 ص185.

³¹ الإتيان ج1 ص193.

³² تفسير العياشي: ج2، ص66.

³³ الكافي: ج2، ص633.

وكل حرام وحلال أو حد أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي ، حتى أرش الخدش)³⁴.

وروى الكليني عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : (ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء)³⁵.

وروي ما يفهم منه تأييد الإمام علي لجمع عثمان الناس على قراءة واحدة³⁶.

وقد كان الإمام علي وسائر الأئمة يعتمدون على هذا القرآن ويتعبدون به، وهذا أمر ثابت متواتر مقطوع به عنهم، بل دعوا إلى عرض كلامهم على هذا القرآن، فما وافق القرآن يجب الأخذ به وما خالفه يضرب له عرض الجدار³⁷.

والنتيجة أنه ليس للإمام علي وأهل البيت قرآن غير قرآن المسلمين. والذي جمعه وكتبه المئات منهم منذ عهد الرسول، ثم تناقلته الأجيال جيلاً بعد آخر.

ملاحظة

يطلب من الطالبات مطالعة مبثني السورة والآية وشكل المصحف وإعجابه.

القراءات والقراء

القراءات لغة واصطلاحاً

القراءات جمع قراءة ، وهي في اللغة مصدر سماعي ل(قرأ) .

والقراءة: هي مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراءة مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء كانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها .

قال الزركشي في "البرهان": (القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن : هو الوحي المنزل على النبي محمد " صلى الله عليه وآله" للبيان والإعجاز . والقراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما)³⁸.

تاريخ القراءات

يرجع الاختلاف بين القراءات إلى عصر الصحابة عقب وفاة الرسول "صلى الله عليه وآله" كما تشير إليه المصادر التاريخية ، إذ عمد جماعة من كبار صحابة

³⁴ الاحتجاج: ج1، ص223.

³⁵ الكافي: ج1، ص228.

³⁶ ينظر: تاريخ القرآن للزنجاني: ص68.

³⁷ وروايات العرض على القرآن متواترة عن الأئمة (ع). ينظر: الكافي: ج1، ص6 فما بعدها، ووسائل الشيعة: ج27، ص110 فما بعدها.

³⁸ البرهان: ج1، ص318.

الرسول "صلى الله عليه وآله" بعد وفاته إلى جمع القرآن في مصاحف ، كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل ، وربما اختلفوا في تثبيت النص أو في كيفية قراءته ، ومن ثم اختلفت مصاحف الصحابة الأولى.

إذن ففضية اختلاف القراءات ليست وليدة العصور المتأخرة، وإنما تمتد إلى عصر الصحابة، بل تدل بعض النصوص _بغض النظر عن صحتها_ إلى تعدد القراءات في عصر الرسول " صلى الله عليه وآله".

منها : ما روي عن أبي بن كعب قال: (كنت في المسجد فدخل رجلاً فقراً قراءة أنكرتها فدخلنا جميعاً على رسول الله " صلى الله عليه وآله" ودخل ثالث فقراً كل واحد منا غير قراءة صاحبه فجعل النبي " صلى الله عليه وآله" يحسن الجميع).

ومنها : ما روي عن زيد بن أرقم ، قال: (جاء رجل إلى الرسول " صلى الله عليه وآله" فقال : أقراني عبد الله بن مسعود وزيد وأبي فاختلقت قراءتهم، بقراءة أيهم أخذ؟ فسكت رسول الله " صلى الله عليه وآله").

وهناك عدد آخر من النصوص بهذا المعنى رواها علماء الجمهور ، وإن كنا نحفظ بالنسبة لمضمون بعضها المتضمن لاختلاف القرآن المنزل .

أهم عوامل (أسباب) اختلاف القراءات

1- عدم دقة بعض الصحابة ومن أخذ عنهم في حفظ الآيات ، ولذلك نجد أن بعض القراءات تختلف في الكلمات زيادة ونقصاً أو تتباين كلماتها. من ذلك ما ذكره يزيد النخعي من أنه كان في المسجد وسمع رجلين اختلفا في آية من سورة البقرة قرأ أحدهم (وأتموا الحج والعمرة للبيت) وقرأ الآخر (وأتموا الحج والعمرة لله).

2- بداءة الخط الذي كتبت به المصاحف.

إذ لم يكن الخط متطوراً آنذاك ، ولم تكن له قواعد دقيقة ويمكن أن نسجل الملاحظات التالية في الخط التي قد تكون منشأ لاختلاف القراءات :

أ- عدم التنقيط: فقد قرأ الكسائي (إن جاءكم فاسق فثبثوا) وقرأ الباقر: (فتبينوا).

ب- تجريد الحروف عن الحركات ونحوها من العلامات، فقد قرأ نافع قوله تعالى: (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) بصيغة النهي. وقرأ الباقر بصيغة المضارع المجهول .

وكذلك (ربنا باعد بين أسفارنا) أو (ربنا باعد بين أسفارنا).

وكذلك: (ولا تقربوهن حتى يطهرن) أو (حتى يطهرن).

وكذلك: (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) أو (وأرجلكم).

ج- إسقاط الألفات : فقد قرأ أبو جعفر والبصريون: (وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة) وقرأ الباقون: (واعدنا) .

وكذلك الاختلاف في كلمة (ملك) و(مالك).

3- اختلاف لغات العرب ولهجاتهم

مثل (نستعين) قال الفراء: (هي مفتوحة في لغة قيس وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون).

ومن ذلك الصراط والسرراط والزرراط. فلغة قریش هي الصراط.

4- تحكيم الرأي والاجتهاد.

رُوي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: (حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها): (هي من خطأ الكتاب وإنما هي (حتى تستأنسوا وتسلموا)).

وربما تكون هناك عوامل أخرى تعرضت لها المصادر المطولة.

تدوين القراءات المشهورة

اتضح مما تقدم أن ظاهرة تعدد القراءات كانت معروفة منذ عصر الصحابة ، وقد انتقلت إلى باقي المسلمين الذين تعلموا القرآن منهم ، وساهمت عدة عوامل في تعميق الاختلاف بين القراءات وتكثيره حتى صارت القراءة فناً كسائر الفنون .

وتجرد في فترة لاحقة قوم لفن القراءة واعتنوا به حتى اشتهر فيه جماعة عُرفوا بالقراء ، ولكل واحد منهم قراءة يتميز بها.

وقد اهتم الباحثون في علوم القرآن بضبط هذه القراءات وجمعها ، فذكر ابن الجزري أن أول من تصدى لتدوين القراء وقراءاتهم هو أبو عبيد القاسم بن سلام الأنصاري (ت224) جعلهم (25) قارئاً بما فيهم السبعة الذين اشتهروا فيما بعد ، وجاء بعده أبو جعفر الكوفي ثم أبو جعفر الطبري وغيرهم إلى أن جاء ابن مجاهد أبو بكر أحمد بن موسى (ت324) فألف كتاباً اقتصر فيه على قراءات السبعة فقط ، وبعده ألف الآخرون على منواله . وهكذا نلاحظ أن تعيين هؤلاء السبعة وتمييزهم من غيرهم كان مصدره ابن مجاهد ، ولم يميزهم الذين سبقوه في تدوين القراءات والقراء .

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات ، فقبل القراءات السبع ، والقراءات العشر ، والقراءات الأربع عشرة . وأحظى الجميع بالشهرة هي القراءات السبع ، والقراءات العشر .

القراءات السبع والقراءات العشر

في القرن الثالث جاء ابن مجاهد (ت 324هـ) فاختار من تلك القراءات سبعاً، دونها في كتابه (القراءات السبع).

وأصحاب هؤلاء القراءات هم:

عبد الله بن كثير المكي (ت 120 هـ)

عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي (ت 118 هـ)

عاصم بن أبي النجود (ت 127 هـ)

أبو عمرو زبّان بن العلاء البصري (ت 154 هـ)

حمزة بن حبيب بن الزيات الكوفي (156)

نافع بن عبد الرحمن المدني (ت 169 هـ)

علي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ)

وبعده أضاف بعضهم إلى هذه القراءات ثلاث قراءات أخرى، وهي تعود لكل من:

يزيد بن القعقاع المدني (ت 130 هـ)

يعقوب بن إسحاق الحضرمي (ت 205 هـ)

خلف بن هشام (ت 229 هـ)

وهناك من جعل القراءات المعتمدة أربع عشرة قراءة بإضافة قراءات الحسن البصري ، وابن محيصة ، والشنبوذي ، ويحيى اليزيدي.

ضوابط قبول القراءة عند علماء القراءات

وقد ضبط علماء القراءات القراءة المقبولة بـ:

(كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت (رسم) أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصحّ سندها)³⁹.

ومعنى الشرط الأول أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجه النحو، ولو كان محل خلاف، مثل قراءة: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام). بجر الأرحام على أنه معطوف على الضمير، بدون إعادة الجر، وهو خلاف مذهب البصريين، ولكن الكوفيين أجازوه.

³⁹ ينظر: الإتقان: ج1 ص203. نقلاً عن الإمام الجزري.

والشرط الثاني: موافقته لخط أحد المصاحف ولو احتمالاً، إذ قد يكون في قراءة الكلمة أكثر من احتمال بسبب طريقة كتابة المصحف الخاصة، مثل: (مالك يوم الدين)، إذ كتبت في كل المصاحف (ملك)، لكن هناك احتمال صحة مالك، وأن كتابتها بهذا الشكل هي بالنظر إلى وجود رسم خاص للمصحف، فيؤخذ بتلك القراءة.

والشرط الثالث: أن تكون القراءة مروية عن النبي (ص) بالسند الصحيح من عدل ضابط عن مثله بدون شذوذ ولا علة.

واشترط علماء القراءة مع صحة السند أن تنال القراءة ثقة أئمة القراء الضابطين، بحيث تكون مشهورة لديهم متلقاة بالقبول عندهم.

الموقف من القراءات

وقد اختلف العلماء المسلمون حول القراءات بشكل عام والسبع منها بشكل خاص . فذهب بعضهم إلى تواتر السبع عن النبي " صلى الله عليه وآله".

وقال الزركشي عن القراءات السبع: (إنها متواترة عن الأئمة السبعة ، أما تواترها عن النبي صلى الله عليه وسلم ففيه نظر)⁴⁰.

ونقل عن السبكي تواتر القراءات العشر .

أما عند الإمامية فالمعروف أنها غير متواترة، بل هي إما منقولة بخبر الواحد عن النبي (ص) أو اجتهاد من أصحابها، وليست منقولة عن النبي أصلاً. واختار هذا القول جماعة من محققي أهل السنة.

ومع عدم اعتراف جمهور الإمامية بالقراءات، فإنهم لم يقبلوا الاحتجاج بها في إثبات الأحكام الشرعية، نعم أجازوا القراءة بتلك القراءات في الصلاة وغيرها وذلك استناداً إلى تقرير أئمة أهل البيت لها وسكوتهم عنها⁴¹، إذ لو كانوا رافضين للقراءة بها لنهوا عنه، ولم يرد إلينا مثل ذلك، بل على العكس ورد عنهم: (اقرأ كما يقرأ الناس)، و(اقرأوا كما علمتم)⁴².

عدم تواتر القراءات لا يؤثر على تواتر القرآن

إن القول بعدم القراءات أو كونها اجتهاداً من أصحابها لا يؤثر على تواتر القرآن وحجيته.

40 البرهان للزركشي: ج1، ص319.

41 ينظر: البيان: ص163 و166.

42 الكافي: ج2، ص633 و631.

وذلك لأن القراءات هي اختلافات طفيفة في قراءة بعض الكلمات كالأمثلة التي مرّت من قبيل (ملك) أو (مالك)، و(صراط) أو (سراط) أو (زراط)، و(تبيّنوا) أو (تثبتوا)، ومع كونها موارد محدودة فهي في الغالب لا تؤثر على المعنى.

ومثل تلك الاختلافات لا تلغي أن الأصل متواتر.

فالنتيجة أن القرآن متواتر في القدر الذي اتفق عليه القراء جميعاً، ولا يضر عدم تواتر بعض الكيفيات في قراءة بعض ألفاظه.

الأحرف السبعة وعلاقتها بالقراءات

وردت روايات عديدة لدى جمهور المسلمين تقول: (إن القرآن نزل على سبعة أحرف)⁴³.

وقد تصور بعضهم أن المراد من الأحرف السبعة هو القراءات السبع المشار إليها. وهذا التصور خاطئ. لأن هذه القراءات لم تكن مشخّصة ومتميزة عن غيرها حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وذلك حين جاء ابن مجاهد الذي جمع هذه القراءات ودوّنها في كتابه كما أشرنا.

وأما معنى أن القرآن نزل على سبعة أحرف، بناء على صحة هذه الروايات فقد اختلفوا فيه، وكل وجه من الوجوه التي ذكرت لا يخلو من إشكال⁴⁴.

وقد روي عن أئمة أهل البيت نفي أن يكون القرآن على سبعة أحرف.

فعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن القرآن واحد نزل من عند واحد، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة).

وعن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : إن الناس يقولون: إن القرآن

نزل على سبعة أحرف ، فقال: كذبوا أعداء الله ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد)^{45 46}.

المحكم والمتشابه

⁴³ ينظر مثلاً: صحيح البخاري: ج3، ص90، وج6، ص100، وج8، ص215، ومسند أحمد: ج1، ص24، وصحيح مسلم: ج2، ص202، وغيرها.

⁴⁴ يطلب من الطالبات مراجعة ما كتبه السيد الخوني في كتاب البيان ص171، فما بعدها في نقد أحاديث الأحرف السبعة والوجوه التي ذُكرت في تفسيرها.

⁴⁵ الكافي: ج2، ص630.

⁴⁶ للاستزادة في بحث القراءات يمكن مراجعة كتابي: البيان للسيد الخوني، وعلوم القرآن والحديث لنور الدين عتر.

يقول الله تعالى : (كتاب أحكمت آياته). ويقول : (الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) .

ويقول : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا) .

نجد الآية الأولى تنص على أن القرآن كله محكم، وتريد أنه ثابت لا يدخل عليه أي خلل أو بطلان . والآية الثانية تنص على أن القرآن كله متشابه ، وتريد أن آياته على وتيرة واحدة في الجمال والأسلوب وحلاوة اللهجة والاعجاز .

أما الآية الثالثة فنقسم القرآن إلى قسمين محكم ومتشابه، فما المراد بكلٍ منهما ؟ .

معنى المحكم والمتشابه عند المفسرين العلماء :

اختلف علماء الإسلام في معنى المحكم والمتشابه اختلافات كثيرة، ربما تبلغ الأقوال في ذلك إلى عشرين قولاً .

والذي جرى عليه عملهم من العصر الإسلامي الأول حتى العصر الحاضر وعليه الاعتماد هو :

1- المحكم هو الآيات التي معناها المقصود واضح لا يشتبه بالمعنى غير المقصود، فيجب الإيمان بمثل هذه الآيات والعمل بها .

2- المتشابه هو الآيات التي لا تقصد ظواهرها ، ومعناها الحقيقي الذي يُعبّر عنه بالتأويل لا يعلمه إلا الله تعالى فيجب الإيمان بمثل هذه الآيات ولكن لا يعمل بها .

وهذا القول بالرغم من أن عليه عمل أكثر المفسرين لا يوافق الآية الكريمة (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) إلخ ، كما أنه لا يطابق ما تدل عليه سائر الآيات لأنه :

أولاً : إننا لا نعرف في القرآن آيات لا نجد طريقاً إلى معرفة مداليلها ومعانيها المقصودة . هذا بالإضافة إلى أن القرآن وصف نفسه بأوصاف كالنور والهادي والبيان ، وهذه الأوصاف لا تتفق مع عدم معرفة المداليل والمعاني .

ثانياً : وصفت الآية الكريمة جملة آيات محكمات بـ هن أم الكتاب ، ومعنى هذا أن الآية المحكمة تشتمل على أمهات ما في الكتاب من الموضوعات وبقية الآيات متفرعة عنها . ولازم هذا أن الآيات المتشابهة ترجع إلى الآيات المحكمة في مداليلها والمراد منها ، ونعني بذلك إرجاع المتشابهات إلى المحكمات لمعرفة معناها الحقيقي .

وعليه ليس في القرآن آية لا نتمكن من معرفة معناها .

ملاحظة:

يمكن أن يقال : إن المقصود من الآيات المتشابهة هي الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور ك ألم ، ألر ، حم وأشباهاها ، حيث لا يمكن معرفة معانيها الحقيقية

ولكن لا بد من الالتفات إلى أن في الآية الكريمة وضعت الآيات المتشابهة مقابلاً للآيات المحكمة . ولازم هذه التسمية أن المتشابه له مدلول من قبيل المدلول اللفظي إلا أنه يشتبه فيه مع المدلول الحقيقي ، والحروف المقطعة في أوائل السور ليس لها هكذا مدلول .

وبالإضافة إلى هذا يدل ظاهر الآية على أن جماعة من أهل الزيغ ومبتغي الفتنة يسعون في الإضلال بوساطة الآيات المتشابهة ، ولم يسمع أن شخصا في المسلمين أضل الناس بالحروف المقطعة المذكورة ، بل الذين يضلون الناس إنما يضلون بتأويل كلها لا بهذه الحروف خاصة.

القول المختار

إن الآيات المحكمة هي الآيات الواضحة البيّنة في دلالتها على المعنى، بحيث لا يمكن تأويلها أو حرف معناها.

والمتشابهة، هي التي لا يراد منها ظاهرها، ولا يمكن فهم المراد الحقيقي منها إلا بإرجاعها إلى المحكم.

مثال: قوله تعالى: (ليس كمثل شيء)، يدل دلالة واضحة أن الله لا يشبهه شيء، فهو ليس جسماً ولا مادة. فهذه آية محكمة.

ولكنّ قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى)، وقوله (وجاء ربك) يدلان بظاهرهما على الجسمية وأن الله تعالى مادة. فهما متشابهتان، فلا بد من إرجاعهما إلى الآية المحكمة، وتأويلهما بما لا يتنافى مع دلالتها. فنقول: إن المقصود: الرحمن استوى تدبيره على العرش. وجاء أمر ربك.

مثال آخر الآيات التي لا تدل باهرها على عدم عصمة النبي ليغفر ل الله ما تقدم من ذنب ينق

وقد نقل عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال : (من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم ثم قال : إن في اخبارنا تشابها كمتشابه القرآن فردوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها فتضلوا).

ومفهوم الرد الذي تطرحه الآية يؤكد صحة الرأي الذي اخترناه في معنى المتشابه، وأنه قابل للفهم، وليس من قبيل الكلام المستعصي على الفهم الذي لا يعرف المراد به إلا الله! كما هو الرأي المشهور في تفسير المتشابه.

التفسير والتأويل

التأويل مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع.

اختلف المفسرون في معنى التأويل والمشهور فيه قولان :

1 قول القدماء ، ومحصل كلامهم أن التفسير والتأويل بمعنى واحد وهما مترادفان .
وعليه فلكل الآيات القرآنية تأويل.

2 قول المتأخرين ، وهو أن التأويل المعنى خلاف الظاهر الذي يقصد من الكلام .

وعليه فليس لكل الآيات تأويل ، وإنما يختص ذلك بالآيات المتشابهة، كالأيات الظاهرة في الجسيمة والمجيء والاستواء والرضا والسخط والأسف، وغيرها من الأوصاف المنسوبة إليه جل جلاله.

وكذلك الآيات الظاهرة في نسبة الذنب إلى الرسل والأنبياء المعصومين عليهم السلام.

هل تأويل المتشابهات مختص بالله؟!!

قال تعالى في الآية التي مرت: (هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به).

فهل هذا يعني أن التأويل مختص بالله؟ وإذا كان كذلك فكيف قلنا بأن الآية المتشابهة يمكن معرفة تأويلها بإرجاعها إلى المحكمة؟!!

الجواب: التأويل بحسب الآية الكريمة يحتمل وجهين:

أن يكون مختصاً بالله، وذلك في ما لو اعتبرنا (الراسخون) مبتدأً، خبره جملة (يقولون)، وتكون جملة (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) كلها جملة استئنافية.

أن يكون مشتركاً بين الله وبين الراسخين في العلم، وذلك إن قلنا أن (الراسخون) معطوف على لفظ الجلالة، وجملة (يقولون) استئنافية، أي: (ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)، ثم يستأنف الكلام فيقول: يقولون آمنا به.

ولكن الروايات الكثيرة دلّت على أن النبي والأئمة (ع) يعلمون التأويل كما يعلمه الله تعالى، فهي تؤيد حمل الآية على الوجه الثاني.

ففي الكافي بسنده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : نحن الراسخون في العلم ، ونحن نعلم تأويله).

وفيه عن بريد بن معاوية عن أحدهما (الباقر أو الصادق) عليهما السلام) (في قول الله عز وجل * (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم):

(فرسول الله (صلى الله عليه وآله) أفضل الراسخين في العلم ، قد علمه الله عز وجل جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلم تأويله ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله).

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن

هناك حِكْمٌ متعددة، يمكن إيرادها:

الأولى: إن القرآن جاء بالمتشابه، من أجل أن يدفع الناس إلى التفكير والتدبر، وأن يحركوا أدمغتهم للوقوف على الحقائق القرآنية، ولعل من أهداف ذلك أنه يريد بناء جيل مفكر، له القدرة على المقارنة والتحليل، والبحث والاستنتاج، وليس جيلاً مقلداً يسمع ويكرر كاللبغاء. وكذلك حين يحصل الإنسان إلى الحقائق بعد البحث والتمحيص، تكون تلك الحقائق أبقى وأثبت في ذهنه.

الثانية: إن وجود الآيات المتشابهة هو حتى يدفع القرآن عامة الناس أن يرجعوا إلى أهل العلم والمعرفة، ويسألوا الراسخين في العلم. وبتعبير آخر حتى يربط الناس بالعلماء الربانيين، لأن الاكتفاء بالقرآن لوحده، وهو كتاب صامت قد لا يكفي من العصمة من الضلالة، ولذا قال تعالى للنبي: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم). وقال: (ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا)، وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، وقال: (فاسألوا أه الذکر إن كنتم لا تعلمون).

الثالثة: من باب الامتحان والاختبار: فالمتشابه في القرآن هو نوع من الفتنة والامتحان للناس، ليتبين الذين يستغلون هذا التشابه أو الخفاء في بعض الآيات من أجل حرفها عن مقاصدها، ولا يرجعونها إلى المحكمات، بهدف التشويش والتعمية وإضلال الناس، فهو امتحان لهؤلاء.

كما قال تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله). كما أنه امتحان كذلك لمن يأخذ بنفسيرات وأقوال هؤلاء ويترك الآيات المحكمة الواضحة التي أمر بالرجوع إليها.

الناسخ والمنسوخ

إن البحث عن الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من الموضوعات التي لفتت نظر الباحثين والمحققين ، وقد أُلّف في ذلك الموضوع كتب ورسائل ، وقد قام أبو بكر النحاس بجمع الآيات التي ادعى نسخها في كتاب أسماه " الناسخ والمنسوخ " فبلغت (138) آية .

النسخ لغةً بمعنى الإزالة.

وفي الاصطلاح عبارة عن " رفع أمر ثابت " في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه ، والمعروف بين الإلهيين ، جواز النسخ أي رفع الحكم عن موضوعه في عالم التشريع والإنشاء ، وخالف في ذلك اليهود ، فادعوا استحالة النسخ ، واستندوا في ذلك إلى شبه واهية .

والمقصود في المقام هو نسخ الأحكام الواردة في القرآن الكريم ، لا مطلق نسخ الأحكام، فإن ذلك خارج بحثنا.

وقد قسموا النسخ إلى ثلاثة أقسام :

1 - نسخ التلاوة والحكم .

2 - نسخ التلاوة دون الحكم .

3 - نسخ الحكم دون التلاوة .

والأول : بيّن الفساد، لأن معناه القول بتحريف القرآن. وأنه كانت فيه آيات وحذفت منه. والثابت أن القرآن لم يُحَرَّف، أي لم يزد فيه ولم ينقص.

ومثّل للثاني : بآية الرجم ، وأنه كان في القرآن الكريم ثم نسخ ، والقول به أيضاً يلزم القول بالتحريف المصون عنه كتاب الله العزيز .

والقسم الثالث : هو المشهور بين العلماء والمفسرين ، فأنكر جماعة وجوده ، وخالفهم بعض آخر بعد الاتفاق على الإمكان ، والعدد الذي ذكره النحاس إفراط ، كما أن نفيه من رأس تفريط⁴⁷.

أمثلة على النسخ

أولاً: آية التوجه :

1 - قوله تعالى * (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) .

قال السيوطي في الإتقان : إنها - على رأي ابن عباس - منسوخة بقوله تعالى: (فول وجهك شطر المسجد الحرام) * .

وروي عن علي (عليه السلام) أنه كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أول مبعثه يصلي إلى بيت المقدس جميع أيام بقائه بمكة ، وبعد هجرته إلى المدينة بأشهر غيرته اليهود وقالوا : أنت تابع لقبلتنا ، فأحزن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذلك منهم ، فأنزل الله عليه - وهو يقلب وجهه في السماء وينتظر الأمر - * (قد نرى تقلب

47 يلاحظ: مفاهيم القرآن للشيخ جعفر السبحاني.

وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره (48).

ثانيًا: آية الصدقة

وهي قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأظهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) .

قال في الإتقان : (الآية منسوخة بالآية بعدها (أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون) .

وقال الطبرسي في مجمع البيان (وقوله " أشفقتم . . . الخ " قال سبحانه ناسخًا للحكم الأول ، وأنكم أهل الميسرة أخفتم الفاقة وبخلتم بالصدقة ، فتاب على تقصيركم ، وأمركم عوض الصدقة ، وهو واجب مالي بشيء آخر..).

وروى علي بن إبراهيم عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) ، قال : سألته عن قول الله عز وجل : (إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) قال :

قدم علي بن أبي طالب بين يدي نجواه صدقة ، ثم نسخها قوله * (أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة) .

وروي أيضًا عن مجاهد قال : (قال علي (عليه السلام) : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ، وهي آية النجوى ، كان لي دينار فبعته بعشرة دراهم ، فجعلت أقدم بين يدي كل نجوى أناجيها النبي (صلى الله عليه وآله) درهما . قال : فنسخها قوله : " أشفقتم . .) .

حول تفسير القرآن ومدارس التفسير

التفسير وظهوره وتطوره⁴⁹:

بدأ التفسير وبيان معاني ألفاظ القرآن وعباراته من عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان هو المعلم الأول للقرآن الكريم وتوضيح مقاصده وحل ما غمض من عباراته، قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) .

وقال : (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

48 بحار الأنوار: ج93، ص1. عن تفسير النعماني.

49 بحث التفسير وظهوره وتطوره مأخوذ من كتاب القرآن في الإسلام للسيد محمد حسين الطباطبائي ص53 فما بعدها.

وفي عصر النبي وبأمر منه اشتغل جماعة من الصحابة بقراءة القرآن وحفظه وضبطه ، وهم الذين سُمُوا بالقرّاء . وبعد الصحابة استمر المسلمون في التفسير وما زال حتى الآن فيهم مفسرون.

أسلوب التفسير وطبقات المفسرين عند أهل لسنة

الطبقة الأولى

اشتغل جماعة من الصحابة بالتفسير بعد أن ارتحل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ومنهم أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبو سعيد الخدري وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وأنس وأبو هريرة وأبو موسى الأشعري، وكان أشهرهم عبد الله بن عباس .

كان منهج هؤلاء في التفسير أنهم ينقلون ما يسمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معاني الآيات بشكل أحاديث مسندة، وبلغت هذه الأحاديث كلها إلى نيف وأربعين ومائتي حديث، أسانيد كثير منها ضعيفة ومتون بعضها منكورة لا يمكن الركون إليها.

وربما ذكر هؤلاء تفسير بعض الآيات على أنه تفسير منهم بدون إسناده إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فعد المفسرون من متأخري أهل السنة هذا القسم أيضًا من جملة الأحاديث

بحجة أن الصحابة أخذوا علم القرآن من النبي ويبعد أن يفسروا من عند أنفسهم .

ولكن لا دليل قاطع على كلامهم هذا ، بالإضافة إلى أن كمية كبيرة من الأحاديث المذكورة

واردة في أسباب نزول الآيات وقصصها التاريخية، أي ليست شرحًا لمقاصد الآيات، كما أن فيها أحاديث غير مسندة منقولة عن بعض علماء اليهود الذين أسلموا ككعب الأحبار وغيره.

وكان ابن عباس في أكثر الأوقات يستشهد بأبيات شعرية في فهم معاني الآيات ، كما نرى ذلك جليًا في مسائل نافع بن الأزرق ، فإن ابن عباس عند الإجابة عليها استشهد بالشعر في أكثر من مائتي مورد من الآيات ، وقد نقل السيوطي مائة وتسعين جوابًا منها في كتابه الإتقان. ومن هنا لا يمكن اعتبار الأحاديث المنقولة عن الصحابة أحاديث نبوية كما لا يمكن القول بأنهم لم يفسروا مطلقًا برأيهم .

ومفسرو الصحابة هم الطبقة الأولى من مفسري الصحابة .

الطبقة الثانية

هم التابعون ، وهم تلامذة مفسري الصحابة ، وهم مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وضحاك. ومن هذه الطبقة أيضاً الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح وعطاء بن أبي مسلم وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي وقتادة وعطية وزيد بن أسلم وطاوس اليماني.

الطبقة الثالثة

تلامذة الطبقة الثانية ، كربيعة بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبو صالح الكلبي ونظرانهم.

كان من منهج التابعين في التفسير أنهم ينقلونه أحياناً بصورة أحاديث عن الرسول الكريم أو الصحابة، وأحياناً ينقلونه بشكل نظريات خاصة بلا إسنادها إلى أحد، فتعامل متأخرو المفسرين مع هذه الأقوال معاملة الأحاديث النبوية واعتبروها أحاديث موقوفة.

ويطلق على الطبقتين الأخيرتين لفظة قدماء المفسرين.

الطبقة الرابعة

أوائل المؤلفين في علم التفسير ، كسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج وعبد ابن حميد وغيرهم . ومن هذه الطبقة أيضاً ابن جرير الطبري صاحب التفسير المشهور.

ومنهج هذه الطبقة من المفسرين كان نقل أقوال الصحابة والتابعين بشكل أحاديث في مؤلفاتهم التفسيرية بدون ذكر آرائهم الخاصة.

إلا أن ابن جرير في تفسيره قد يبدي رأيه في ترجيح بعض الأحاديث على بعضها وكيفية الجمع بينها.

ومن هذه الطبقة تبدأ طبقات المفسرين المتأخرين .

الطبقة الخامسة

المفسرون الذين نقلوا الأحاديث في تفاسيرهم بحذف الأسانيد واكتفوا بنقل الأقوال والآراء.

ومن أولئك السدي ومقاتل بن سليمان وابن أبي حاتم وابن سلام البصري والثعلبي في تفسيره الكشف والبيان.

قال السيوطي : فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل.

إلا أن المتدبر في الأحاديث المسندة يرى أيضاً كثيراً من الوضع والدس ، ويشاهد الأقوال المتناقضة تنسب إلى صحابي واحد ، ويقرأ قصصاً وحكايات يقطع بعدم

صحتها ، ويمر على أحاديث في أسباب النزول والناسخ والمنسوخ لا تتفق مع سياق الآيات . ومن هنا نقل أن الإمام أحمد بن حنبل قال : ثلاثة لا أصل لها المغازي والملاحم وأحاديث التفسير . ونقل عن الإمام الشافعي أن الثابت من الأحاديث المروية عن ابن عباس مائة حديث فقط.

الطبقة السادسة

المفسرون الذين كتبوا التفسير بعد ظهور العلوم المختلفة ونضجها، فكتب كل منهم حسب اختصاصه وفي العلم الذي أتقنه : فالنحوي أدرج المباحث النحوية كالزجاج والواحدي وأبي حيان، والأديب أورد المباحث البلاغية كالزمخشري في كشافه، والمتكلم اهتم بالمباحث الكلامية كالفخر الرازي في تفسيره الكبير والصوفي غاص في المباحث الصوفية كابن العربي وعبد الرزاق الكاشاني في تفسيريهما، والأخباري ملأ كتابه بالأحاديث كالثعلبي في تفسيره، والفقهاء جاء بالمسائل الفقهية كالقرطبي في تفسيره. وقد خلط جماعة آخرون في تفسيرهم بين العلوم المختلفة كما نشاهده في تفسير روح المعاني وروح البيان وتفسير النيسابوري.

والخدمة التي قدمتها هذه الطبقة إلى علم التفسير هي إخراجها من جموده وإخضاعه للدرس والبحث، ولكن الإنصاف يقتضي القول بأن كثيرًا من المباحث التي كتبها هؤلاء حُمِلت على

القرآن حملاً ولا تدل عليها الآيات.

أسلوب مفسري الشيعة وطبقاتهم

الطبقات التي ذكرناها هي طبقات المفسرين من السنة ورأينا أن لهم منهجًا خاصًا في التفسير ساروا على ضوئه من حين نشأته ، فجعلوه أحاديث نبوية وأقوال للصحابة والتابعين ولم يجيزوا أعمال النظر فيها لأنه يكون من قبيل الاجتهاد مقابل النص.

ولكن لما ظهر التناقض والتضارب والدس والوضع فيها بدأت الطبقة السادسة تعمل رأيها فيها وتجتهد.

أما المنهج الذي اتخذته الشيعة في تفسير القرآن الكريم فيختلف مع منهج السنة ، ولذا يختلف تقسيم طبقاتهم مع الطبقات المذكورة .

تعتقد الشيعة - بنص من القرآن الكريم - حجية أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التفسير ، وترى أن الصحابة والتابعين كبقية المسلمين لا حجية في أقوالهم إلا ما ثبت أنه حديث نبوي . وقد ثبت بطرق متواترة في حديث الثقلين أن أقوال العترة الطاهرة من أهل بيته عليهم السلام هي تالية لأقوال الرسول ، فهي حجة أيضًا. ومن هنا أخذت الشيعة في التفسير بما أثر عن النبي وأهل بيته عليهم السلام ، فكانت طبقات المفسرين منهم كما يلي :

الطبقة الأولى:

الذين رَووا التفسير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام وأدرجوا الأحاديث في مؤلفاتهم المتفرقة ، كزرارة ومحمد بن مسلم ومعروف وجريز وأشباههم.

الطبقة الثانية:

أوائل المؤلفين في التفسير ، كقرات بن إبراهيم الكوفي وأبي حمزة الثمالي والعياشي وعلي بن إبراهيم القمي والنعمانى .

وطريقة هؤلاء في تفاسيرهم تشبه طريقة الطبقة الرابعة من مفسري أهل السنة ، فقد رَووا الأحاديث المأثورة عن الطبقة الأولى وأدرجوها مسندة في مؤلفاتهم ولم يبدوا آراءهم الخاصة في الموضوع .

ومن الواضح أن الزمن الذي كان يمكن الأخذ فيه عن الأئمة عليهم السلام كان طويلاً تجاوز الثلاثمائة سنة⁵⁰، فكان من الطبيعي أن لا يضبط الترتيب الزمني لهاتين الطبقتين بصورة دقيقة ، بل كانتا متداخلتين من الصعوبة بمكان التفريق الدقيق بينهما .

وقد قل عند أوائل مفسري الشيعة نقل أحاديث التفسير بشكل روايات مرسله في تفاسيرهم ،

وكنموذج لنقل الأحاديث مروية بدون أسانيد نلفت الأنظار إلى تفسير العياشي الذي حذف

بعض تلامذته أسانيد اختصاراً ، فاشتهرت نسخة التلميذ المختصرة وحلت محل نسخة الأصل.

الطبقة الثالثة:

أصحاب العلوم المختلفة ، كالشريف الرضي في تفسيره الأدبي والشيخ الطوسي في تفسيره الكلامي المسمى بالتبيان والمولى صدر الدين الشيرازي في تفسيره الفلسفي والمبيدي الكونابادي في تفسيره الصوفي والشيخ عبد علي الحويزي والسيد هاشم البحراني والفيض الكاشاني في تفاسيرهم نور الثقلين والبرهان والصابي وهي تفاسير روائية.

⁵⁰ وذلك لأنه وإن كانت غيبة الإمام المهدي (ع) في سنة 260 للهجرة، ولكن التواصل استمر مع الشيعة من خلال ما عُرف بالغيبة الصغرى عبر الثواب الأربعة، وذلك حتى سنة 329 هـ.

وهناك جماعة جمعوا في تفسيرهم بين العلوم المختلفة ، ومنهم الشيخ الطبرسي في تفسيره مجمع البيان الذي يبحث فيه عن اللغة والنحو والقراءة والكلام والحديث وغيرها.

التفسير بالرأي

ورد في الروايات أن (من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)⁵¹، وأن (من فسّر القرآن برأيه وأصاب الحق فقد أخطأ)⁵².

فما هو المقصود من ذلك؟!

الجواب: إن التفسير بالرأي يُراد به التفسير غير المبني على أسس علمية لغوية وتاريخية وقرآنية وروائية، وإنما يعتمد على الذوق الشخصي والاستحسان. أي تفسير بدون استناد إلى دليل معتبر. وأما التفسير وفق مداليل الألفاظ وقواعد اللغة ووفق التاريخ والروايات الصحيحة، وجمع الآيات إلى بعضها فليس تفسيرًا بالرأي.

القرآن يحتاج إلى التفسير

قد يتصور شخص بأن القرآن لا يحتاج إلى تفسير، وذلك لأسباب:

1- إنه حجة على الناس، فكيف يكون حجة على الناس، وهم لا يفهمونه؟

2- إن القرآن قال عن نفسه إنه نزل (بلسان عربي مبين). وقال: (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون). وقال: (ولو جعلناه أعجميًّا لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته). وهذا يعني أن القرآن قابل للفهم!

3- إن القرآن عبّر عن نفسه بالنور (إنا أنزلنا إليك نورًا مبينًا)، والنور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره، فكيف يحتاج إلى تفسير؟ وكذا عبّر عن نفسه بالبيان والهادي (هذا بيان للناس) (هدى للناس).. ومع هذا فكيف يحتاج إلى تفسير؟!

والجواب:

إن القرآن مفهوم في الجملة وبشكل عام لمن نزل بلغتهم، ولذا انتبهوا إلى جوانب الإعجاز والإبداع فيه، وبُهروا بقوة منطقته وحجته وروعة بلاغته وسحر بيانه، ولكن هذا لا يعني أنه واضح بكل تفاصيله، إذ قد تكون هناك كلمات يمكن حملها على أكثر من معنى، فهي تحتاج إلى بيان و تفسير، وقد يتوقف فهم بعض الآيات على معرفة سبب النزول كما أشرنا سابقًا، وقد ترتبط بعض الآيات بأحكام شرعية لها تفاصيل وتذييلات، وهو ما يحتاج إلى مزيد بيان، هذا بالنسبة لمن عاصروا النص، وأما من جاء بعد ذلك ونحن منهم، فبحاجة إلى أمور أكثر من ذلك لفهم النصوص القرآنية،

⁵¹ عوالي اللآلي: ج4، ص104.

⁵² التبيان: ج1، ص4.

وذلك لتغير لغتنا، ومن ثم بُعِدنا عن لغة النص القرآني، مما يستدعي حاجتنا إلى تفسير بعض الكلمات من خلال الرجوع إلى المعاجم، وكذلك الرجوع إلى علمي الإعراب والبلاغة لفهم الكثير من التعابير والعبارات.

المناهج التفسيرية

هناك مناهج عديدة اعتمدها المفسرون في تفسير القرآن، منها:

التفسير اللغوي: وهي تلك التفاسير التي تبيّن معاني الكلمات والألفاظ الصعبة. وتشرح المراد بشكل بسيط. مثل تفسير القرآن الكريم للسيد عبد الله شبر، وتبيين القرآن للسيد محمد الشيرازي.

التفسير النحوي: وتتطرق للإعراب ومسائل النحو، كتفسير (معاني القرآن وإعرابه) لأبي إسحاق الزّجاج، وتفسير البسيط للواحدي.

التفسير الأدبي والبلاغي: ويهتم بالجوانب البلاغية المختلفة، خصوصًا ما يرتبط بعلم البيان. كتلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي، والكشاف للزمخشري.

التفسير الفلسفي: وهو التفسير الذي يتناول تفسير الآيات وفق المقولات والنظريات الفلسفية وفي ضوئها، ومن تلك التفاسير تفسير الفارابي المعروف بـ (فصوص الحكم) وتفسير القرآن الكريم لصدر الدين الشيرازي.

التفسير الصوفي أو الإشاري: وهو التفسير بغير ظاهر القرآن، بعد التدبر والتأمل فيه، وهذه المعاني تظهر لأرباب السلوك والتصوف. وسمي تفسيرًا إشاريًا، لأنه لا يعتمد على الظاهر، بل على ما يلوح للمفسر من إشارة، وذلك كتفسير سهل بن عبد الله التستري المسمى بتفسير التستري، وتفسير محي بن عربي، واسمه (تفسير ابن عربي).

التفسير الكلامي: والكلام هو العلم الذي يُعنى بالدفاع عن العقائد الدينية، والتفسير الكلامي، هو الذي يركّز على القضايا العقديّة التي تناولتها الآيات القرآنية، ويسعى لإثباتها ويحشد الأدلة لذلك. كتفسير البيان للشيخ الطوسي ومفتاح الغيب للفخر الرازي.

التفسير الفقهي: ويعنى بالآيات المرتبطة بالفقه أو ما يطلق عليه: آيات الأحكام، فيناقشها ويفصّل ويسهب فيها، أي يكون محل اهتمامه في التفسير ما يتعلق بالفقه الإسلامي. كتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن).

التفسير الاجتماعي: ويكون محط نظره المفاهيم والأحكام الاجتماعية والتربوية في القرآن، كتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب، ومن وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله.

التفسير العلمي: وهو التفسير الذي يتناول القرآن بوصفه كتابًا حاويًا على الكثير من الحقائق العلمية المرتبطة بالكون والحياة، ومن ذلك ما يتعلق بعلوم الفيزياء والفلك والطب وغيرها.

ككتاب الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهري، والتفسير العلمي للقرآن لزغول النجار.

التفسير القرآني: ويعتمد على تفسير القرآن بالقرآن، وقد تبنى هذا المنهج السيد الطباطبائي في الميزان، مع أنه لم يقتصر عليه.

التفسير الروائي: كتفسير الطبري والثعلبي ونور الثقلين للحويزي والبرهان للبحراني. وهناك تفاسير اتسمت بالشمولية النسبية في المنهج كمجمع البيان والميزان وروح المعاني.

أي المناهج التفسيرية أصوب؟

كل المناهج مطلوبة، ولا يمكن الأخذ بمنهج واحد وترك البقية، مع وجود ملاحظات تتعلق بالتفسير الفلسفي والتفسير الصوفي والعلمي، إذ لا يمكننا محاكمة الآيات القرآنية بناء على النظريات الفلسفية، فقد لا تكون تلك النظريات صائبة، وبالنسبة للتفسير الصوفي، فلا حجة لما يفهمه العارف من الآية إن لم يكن يستفاد من ظاهرها، ومن ثم فادعاء استخراج معانٍ خفية من الآيات لا ينفع شيئاً.

وأما التفسير العلمي، فصحيح أن القرآن تضمن بعض الإشارات إلى حقائق علمية، ولكنه ليس كتابًا علميًا تجريبيًا، فتبقى مساحة تلك الآيات محدودة، وإنما طرحت هذه الإشارات في معرض بيان القدرة الإلهية العظيمة لا لكون القرآن كتاب علوم تجريبية! وكذلك لا يجوز تحميل الآيات ما لا تحتل في سبيل استفادة قضية علمية ما من الآية، كما أنه ينبغي الحذر في المبالغة في هذا الجانب، لأن كثيرًا من القضايا العلمية قابلة للتغيير والنقض كلما تطور العلم.

أهم المصادر التفسيرية القديمة والحديثة لدى الفريقين

مصادر التفسير العام عند الشيعة

1 - تفسير التبيان: محمد بن الحسن الطوسي (ت460هـ).

2 - تفسير مجمع البيان: الفضل بن الحسن الطبرسي (القرن السادس).

3 - تفسير كنز الدقائق: محمد المشهدي (ت1125هـ).

4 - تفسير الميزان: محمد حسين الطباطبائي (ت1412هـ).

5 - تفسير الأمتل: ناصر مكارم الشيرازي.

- 6 - تفسير مواهب الرحمن: عبد الأعلى السبزواري
- 7 - تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان: محمد الشيرازي.
- 8 - التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية.

مصادر التفسير العام عند أهل السنة

- 1 - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ).
- 2 - التفسير الكبير: فخر الدين الرازي (ت606هـ).
- 3 - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد القرطبي (ت671هـ).
- 4 - تفسير الألوسي، محمود الألوسي (ت1270هـ).

مصادر التفسير الروائي لدى الشيعة

- 1 - تفسير الإمام العسكريx: الإمام الحسن بن علي العسكري (ت260هـ)، ط1، قم، مدرسة الإمام المهديx.
- 2 - تفسير أبي حمزة الثمالي: ثابت بن دينار (ت148هـ).
- 3 - تفسير العياشي: محمد بن مسعود العياشي (ت320هـ).
- 4 - تفسير فرات الكوفي: فرات بن إبراهيم الكوفي (ت352هـ).
- 5 - تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي (ت329هـ).
- 6 - تفسير البرهان: هاشم البحراني (ت1107هـ).
- 7 - تفسير نور الثقلين: عبد علي جمعة الحويزي (ت1112هـ).

مصادر التفسير الروائي لدى أهل السنة

- 1 - تفسير الطبري: محمد بن جرير الطبري (ت310هـ). بيروت: دار الفكر، 1415هـ.
- 2 - تفسير الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (ت911هـ) بيروت: دار المعرفة.
من مصادر بحث التفسير ومدارس المفسرين: القرآن في الإسلام للطباطبائي.